Journal of Arabic Language and Literature (JALSL) • Vol 2, Issue 5 (2023) • P: 11 - 1
https://journals.ajsrp.com/index.php/jalsl
ISSN: 2790-7317 (Online) • ISSN: 2790-7309 (Print)

Review of Identity in The Gypsy by Weam Almadady

Prof. Adnan Mahmoud Suleiman Obaidat
Faculty of Science & Arts | Jordan University of Science & Technology | Jordan

Received: 18/07/2023
Revised: 29/07/2023
Accepted: 18/09/2023
Published: 30/12/2023

* Corresponding author: amobeidat@just.edu.jo

Citation: Obaidat, A. M. (2023). Review of Identity in The Gypsy by Weam Almadady. *Journal of Arabic Language Sciences and Literature, 2*(5), 1 –11. https://doi.org/10.26389/AJSRP.B180723

2023 © AISRP • Arab Institute of Sciences & Research Publishing (AISRP), Palestine, all rights reserved.

• **Open Access**

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license

Abstract: *The Gypsy,* by the Moroccan novelist Wiam Al-Madadi, highlights the identity crisis experienced by modern-day humans. Al-Madadi employed characters through which she aimed to reveal her inner thoughts. The gypsy, Mahtab, and her daughter Qamar were the two central characters in the novel, employed to express the writer's thoughts best. Through these two characters, Al-Madadi has creatively conveyed her thoughts about the various individual and group conflicts in the East and West. She particularly reflected upon the Desert Storm in Iraq and the associated contradictory stands of rejection and approval of that war. Moreover, the writer portrayed the individuals' relationships manifested in the religious, historical, humanitarian, and ethnic conflict with others. The novel revealed that murder, conspiracy, and injustice are not only practiced by Muslims and Easterners, as portrayed by the Western media but rather practiced by Westerners, often shown in their relationships within the same society or in their attitudes towards their different civilizations.

Keywords: The novel, identity references, *The Gypsy.* Wiam Al-Madadi.

مَرْجِعِيَّاتُ الهويَّةِ فِي رِوَايَةِ "الغَجَرِيَّة"لِوِئَام المَدَدِيّ

الأستاذ الدكتور / عدنان محمود سليمان عبيدات
كلية العلوم والآداب | جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية | الأردن

المستخلص: تتحدث رواية "الغجرية" للروائية المغربية وئام المددي عن أزمة الهوية التي يعيشها الإنسان المعاصر، استخدمت خلالها شخوصًا عن موضوعها،، أرادت من خلالها أن تَعْبُرَ إلى ما كانت تفكر فيه، فكانت شخصية مهتاب الغجرية وابنتها قمر هما الوسيلة الفضلى عندها للتعبير وكانتا شخصيتي الرواية الرئيستين، واستطاعت من خلال هاتين الشخصيتين أن تعبّر بطريقة إبداعية لغة وتفكيرًا وقدرة على الحبك الدرامي عن الصراعات المختلفة الجماعية والفردية في الشرق والغرب في آن معًا، فتحدثت عن عاصفة الصحراء في العراق بخاصة وما اعترى ذلك من مواقف متضادة بين الرفض والقبول، وصوّرت العلاقات الفردية التي نقلت من خلالها صور الإنسان في صراعه الديني والتاريخي والإنساني والعرقي مع الآخر، وظهر أن القتل والتآمر والظلم لا يمارسه المسلمون والمشارقة بالصورة التي يصورها بهم الإعلام الغربي، بل يمارسه الغربيون في كثير من الأحيان في علاقاتهم داخل المجتمع الواحد، أو في مواقفهم من حضاراتهم المختلفة.

الكلمات المفتاحية: الرواية، مرجعيات الهوية، رواية "الغجرية"، وئام المددي.

المقدمة:

هذه دراسة لرواية "الغَجَرِيَّة" للرّوائيَّة المغربية (وئام المددي[1]،لكتاوي، ماجدة أيت:مقابلة،2015/4/30و(كتارا ، موقع : 2020)، تهدف إلى الوقوف عند مرجعيات الهوية فيها: الجغرافيّة (المكان والزمان)، والعرقية (الأجناس)، والاجتماعية (التبني)، والدينية وقد استخدمت المنهج الوصفي- التحليلي في الوقوف عند هذه الظواهر، وقد ظهر لي أن الروائية كانت واعية لواقع المجتمع الإنساني في هذا العصر، فظهر أن ثقافتها عالية المستوى، وعندها قدرة كبيرة على التحليل العميق، ووعي في العلاقات الإنسانية وثقافات الشعوب والأفراد في الشرق والغرب بعامة، واستطاعت الروائية أن تصوّر تشوهات العصر الحديث بكل مكوناته السياسية والاجتماعية والدينية والتاريخية.

وقعت على دراسة قصيرة لرواية الغجرية ،(قطاف، سارة :2018،ص118-135) ، عنوانها " السرد في رواية الغجرية لوئام المددي بين العجائبية والغرائبية " نشرتها في مجلة متخصصة ،وكانت هناك مقالات صحفية منشورة على قدر كبير من الأهمية، منها: رواية (الغجرية) والبحث عن الهوية،(عباس،عبد الرحمن خضير:2016/5/30) والغجرية .. رواية كتبت بعين سينمائية لتنقل خراب البشرية،(الحسن ، فيصل:2/ 1/ 2018).

قسَّمت البحث إلى مقدمة ومبحثين، تحدثت في المبحث الأول في موضوعين رئيسين، هما: مفهوم الهوية ومقوماتها، والغجر وأصولهم وتسمياتهم والمهن التي يشتغلون فيها، أما المبحث الثاني فهو عن الهوية ومرجعياتها في الرواية، وقد اشتمل الحديث عن المرجعيات التالية: الجغرافيا والتاريخ، والعرق والجنس، والتبني، والدين. وانتهى البحث بخاتمة قصيرة تلخص ما توصلت إليه هذه الدراسة من نتائج.

المبحث الأول: أولاً: مفهوم الهوية:

حرص الناس بمختلف حضاراتهم على مرِّ التاريخ أن يحافظوا على ثقافاتهم الاجتماعية والقومية والثقافية والوطنية والدينية والتاريخية، وأصروا أن يدافعوا عنها، وينشروا الوعي بها في ضوء صراع الحضارات وصراع الهويات، لأنهم فهموا أن الهوية هي ما يميز ثقافة عن أخرى، أو مجتمعًا عن آخر، أو حضارة عن أخرى، أو أن تتفرد شريحة اجتماعية عن أخرى بما يملكون من ميزات تحقق لهم صفة التفرد، ومن أهم هذه الأشياء: اللغة، والدين، والتاريخ، والعادات، والتقاليد، فالأحداث التاريخية والتغيرات المجتمعية والصراعات المختلفة تسهم في توضيح خصائص الهوية، وتدفع نحو التمسك بها، وقد "تزداد غلوًّا وانكفاء على ذاتها كلما تغذت من علاقات تاريخية وسياسية مع الآخر مطبوعة بالصراع والمصادمة، وكلما كانت علاقات القوة المادية والرمزية (تكنولوجيا، صناعة، علم، فلسفة، ثقافة، فن..)، تتسم بعدم التكافؤ وغلبة طرف على الآخر، لذلك يستدعي منطق الهوية نفي الآخر، أو على الأقل إقامة مسافة معه تسمح على الصعيد النفسي والإيديولوجي بتعزيز شعور الذات بوحدتها وتجانسها وعدم خيانتها لهويتها المتصورة كوحدة ضاربة في القدم" (كربية،كريمة محمد: 2015،م27،ص56)،و(بدوي،أحمد زكي:1977،ص185).

إن صراع الهويات التي يسميها البعض صراع الحضارات، خطاب متشابك، يتأجج عندما يختل ميزان القوى، ويصبح الهاجس الأكبر عند الأقوياء هو البحث عن مصالحهم وبخاصة الاقتصادية منها، وهذا يتطلب منهم التركيز على حضارة الآخر، لمحاولة تهميشه أو إلغائه أو إضعافه، فتكون اللغة والدين والعادات والتقاليد أهدافًا رئيسة، لتسهيل مهمتهم التي خططوا لتنفيذها، فتعيش المجتمعات الضعيفة أزمة ثقافية، بسبب تعرضها لغزو ثقافي، أو أن بعض المثقفين فيها يعجبون بالآخر، ويسعون إلى تهميش ثقافتهم، ولهذا صارت الهوية موضوعًا رئيسًا في الخطابات المعاصرة، يسعى فيها الإنسان لحماية ثقافته أو يدعو فيها للمصالحة مع الآخر إعجابًا به، ومن أهم مقومات الهوية:

1- اللغة: هي هوية الأمم، ورمز حضارتها، وهي أداة التفاعل والتواصل والتفاهم وعنوان الانتماء، تحمل فكر الأمة وتسجل تاريخها، وبها تدافع عن ثقافتها ودينها وعاداتها وتقاليدها وآرائها، وهي روحها ووجدانها، وانتشارها ومدى استخدامها يعبران عن قوتها وقوة الناطقين بها، فبها يعبّرون عن الجمال والعشق والمحبة لما يعنيهم من أرض وإنسان ومواقف، وهي بالتالي قضية حضارية تتصل

(1) روائية مغربية، ولدت في مدينة "كلعي" الواقعة جنوبي "أغادير"، في 1989م. ترعرعت في أسرة محبة للعلم؛ فأبوها حسن المددي شاعر وروائي معروف، حصلت على الإجازة في اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن زهر في أغادير سنة 2010م، وعلى الماجستير في علم النص وتحليل الخطاب في الجامعة ذاتها سنة 2013، كما حصلت على شهادة المعهد الإسباني "سيرفانتيس" لتعلم اللغة الإسبانية، ودرست الدكتوراه في تخصص الترجمة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد الملك السعدي في مدينة تطوان. حصلت على المركز الأول لجائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي (الدورة الخامسة 2015م)، عن روايتها "الغجرية"، موضوع هذا البحث، وصدرت عن المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط1، 2017م. ونالت جائزة اتحاد كتاب المغرب للقصة القصيرة (دورة 2010م) عن مجموعتها "البياض"، وجائزة دار الوطن للقصة القصيرة عن قصتها "مَنْ سَرَقَ الجُوكَنْدَا؟" عام 2012م.

بهوية الأمة، فـ"اللغة هي لسان الجماعة، ومرآة فكرها ومنجم عطائها، والملمح الرئيسي لخصوصيتها، والقويُّ.... واع تمامًا لهذه الأبعاد، ولهذا فإنه في تنظيراته الحاضرة والمستقبلية يركّز في هدم خصوصيات الآخرين على حصنين قويين: اللغة والدين، إذ يرى فيهما عنصرين مركزيين لأية ثقافة أو حضارة" (كربية ، كريمة محمد:215،م27،ص52)،و(زاهر ، ضياء الدين:عدد 24،ص9)، و(جامعة الدول، الإدارة العامة للشؤون الاجتماعية : 1985،ص144).

إن اللغة تعبّر عن الصورة الحقيقية لحياة أصحابها، وتحدد هويتهم، وبها تتميز قدراتهم، وأخطر ما تقوم به الأمم هو أن تهمل لغتها؛ وتكون اللغات الأخرى وسيلة العلم والتعليم الرئيسة عندها، "فالإنسان في جوهره ليس سوى لغة وهوية، اللغة فكره ولسانه وفي الوقت نفسه انتماؤه، وهي وجهه وحقيقته وهويته، وشأن الجماعة أو الأمة هو شأن الفرد لا فرق بينهما وفي ذلك الإنسان ومقوماته" (كربية :2015 م27 ، ص59)، فاللغة درع واق ضد هيمنة الثقافات الأخرى، ففيها ذاكرة الماضي والمستقبل.

2- الدين: هو معتقد وأفكار إيمانية، يلتزم فيها الإنسان بسلوكيات وفرائض، والتدين هو اتباع دين والتزام بتعاليمه، وتُجمِع كل الأديان أن الله هو الذي نزّل هذه الأديان من السماء، فالدين الإسلامي هو الهوية العميقة لكثير من الشعوب والأفراد في المجتمعات التي يسكنون فيها، وتعني عند المسلمين:" الإيمان بعقيدة هذه الأمة والاعتزاز بالانتماء إليها، واحترام قيمها الحضارية والثقافية، وإبراز الشعائر الإسلامية والاعتزاز والتمسك بها، والشعور بالتميز والاستقلالية الفردية والجماعية، والقيام بحق الرسالة وواجب البلاغ والشهادة على الناس" (العاني، خليل نوري:2009،ص45)، أما الدين عند الغربيين فاقتصر عندهم على الطقوس، فأصبح بالنسبة لهم هوية ثانوية على الرغم من أهميته.

3- (الجغرافيا/ المكان والتاريخ): إن التاريخ عنصر مهم في هوية الأمة، وهو جزء من ذاكرتها التي تربط بينها روابط مشتركة كاللغة والتاريخ والثقافة والعادات والتقاليد والدين والأرض المشتركة (البوني ، عفيف : 1982،ص19)، و(البيطار، نديم : 1982، ص19)، وبناء الهوية في الثقافة الأوروبية لا يتم في جزء منها إلا عبر معرفة الآخر لتفكيكه والسيطرة عليه، وقد أصرّ الأوروبيون أن يبنوا هوياتهم على حساب الآخر الشرقي على مر الزمن.

وتمثل الجغرافيا عاملاً رئيسًا في الاستمرار في التاريخ؛ لأنه عنصر ثابت ومستمر في التأثير، وهنا تكمن أهميته، فالأرض وعي الإنسان (الدوري، عبد العزيز : 2013،ص245)، ويجب أن ندرك أن الأرض ذات الحدود التي تجمعها اللغة والتاريخ والعادات والتقاليد، وحتى التشكيل الخَلقي والخُلقي- هي عنصر مهم من عناصر تشكيل الهوية، يدافع الإنسان عنها ويضحي بكل ما أوتي من قوة، وإن المثقف الواعي يدرك أن الذاكرة الثقافية والتاريخية للغرب تضع العرب والمسلمين في موضع العدو والخصم الذي يرفض أن يحاوره أو يتقبله، أو يعترف فيه، فالغرب تحكمه مع الآخرين مصالحه، فهو يخطط دائمًا لكي يهيمن على الشعوب الضعيفة، فيشتت الصفوف ويشعل الفتن، ويجزئ الأوطان، ويضعف الدول، ويستلب المواقف، ويشتت العزائم، ويمنع التطور، ظهر ذلك جليًا في غير مكان في الشرق العربي، فأصبح كثير منها أشباحًا خاوية على عروشها، تتزاحم فيها القبور، وتتعالى فيها صيحات الذين تقطعت أوصالهم خوفا وجوعا، بسبب الحرب بكل صنوفها العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

4- العرق والجنس: لا بد من الإشارة أن الأمم على الأرض هي أعراق وأجناس ومذاهب، يختلفون في عاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم وأديانهم، والدولة الواحدة "قد يكون بها عدة ثقافات متشابهة... لكنها غير متطابقة تمامًا، حيث توجد بعض السمات والخصائص العرقية التي تميز ولو بشكل محدود ثقافة عن أخرى" (خضر، علي عادل:2007،ص 164)، وقد ارتبطت فكرة العرق منذ البداية بالسلطة والتدرج الهرمي بين البشر، فمجموعة متفردة بالإنجاز والجمال واللون واللغة والتعليم والعادات والتقاليد وأخرى أقل شأنًا منها (جودمان وآخرون :2017،ص217).

ولم يكن صراع الهوية صراع حضارات أحيانًا، فقد تمكن أصحاب المصالح أن يخلخلوا الهوية داخل المجتمع الواحد والدولة الواحدة والمنطقة الواحدة التي تشترك بثقافة واحدة، فسعوا إلى تنشيط المذهبية الدينية وتأجيجها، فتناحر أصحابها، واقتتلوا واختلفوا في الرأي، فأصبحت الهوية طائفية في كثير من الأحيان بمخطط مدروس بدهاء وخبث، وأصبح المجتمع الواحد هويات متعددة في بعض جوانبها، وكل هوية مذهبية تحاول ترويض الأخرى، إلى أن تحولت إلى بؤر من الصراع المدمر، وقد يكون الصراع داخل المجتمع الواحد صراع عرقيات، تختلف في العادات والتقاليد، كما الغجر في كثير من الدول.

5- التراث، هو أحد أهم الركائز الأساسية للهوية، ويتميز بحركيته وصدقه في تصوير بيئته، فهو نتاج حضارة الأمة على مرّ التاريخ بكل ما فيها من أحداث وتجارب، "وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم، بانتصاراتهم وتطلعاتهم، وأيضا باحتكاكها سلبًا وإيجابًا مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغير من نوع ما، إنها الحد المكتسب من المعارف والتصورات والممارسات الفكرية لدى الإنسان في محيطه الاجتماعي والتي تلقاها لمصلحته ومصلحة هذا المحيط "(تيزيني، طيب: 2008، ص21)، و(عبد الحميد، محسن:1995، ص26)،و(الجابري،محمد عابد ، 1993، ص15)، فالهوية هي المكون الاجتماعي الذي يتشكل من العرق واللون والدم والجنس، وهي القبيلة والأسرة والطبقة التي ينتمي إليها الإنسان، وهي المكون الثقافي الذي يتشكل من اللغة والدين والتاريخ والأساطير والخرافات والمعتقدات والعادات والتقاليد والملبس وطرق الأكل والشرب وروابط الأسرة، أما المكون السياسي فهو

الدولة الوطنية أو القومية، ولا بد من القول: إن الهوية العربية تؤسسها اللغة والثقافة بكل مكوناتها، بينما ترتكز ثقافة الأوروبيين على الاقتصاد وعلى المصالح كما يظهر من ممارساتهم.

ثانيًا: من هم الغجر؟

الغجر طائفة من البشر، لا تعترف بالحدود ولا بالجغرافيا، منغلقة على نفسها، لها عاداتها وتقاليدها الخاصة، و"تطلق مفردة (غَجَر) على مجموعات بشرية تنتشر في بقاع متفرقة من الكرة الأرضية، وتتصف بسمات متقاربة أو متشابهة إلى حد بعيد"(حيدر،جمال:2008،ص18)،و(الهاشمي،حميد:بلا،ص16)، وكلمة الغجر كلمة هندية، من اللغة القديمة، تدعى "الغجراطية"(الهاشمي، حميد: بلا، ص17)، و(علي، خليل الشيخ:1965 ،ص353) ، ويرى بعض الباحثين أنها كلمة تركية الأصل مأخوذة من كلمة "كوجر"(الهاشمي، حميد: بلا،ص19) ، وظن كثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع وبخاصة الغربيين أن الغجر نزحوا من مصر، لكن هذا الرأي تراجع عنه أغلبهم، فأكثر الدراسات التي تناولت حياتهم وأصولهم أثبتت "أن الهند هي الموطن الأصلي للغجر، بعدما دوَّنوا مطلع القرن الثامن الميلادي الفصل الأول من كِتاب هجْرتهم المُتواصلَة، لِعَجْزِهِم عن مواجهةِ موجاتِ الغزوِ نحو مناطقِهِم في مَمَرَّاتِ ووديان جبال هندكوش وعلى سفح جبل بامير، ومنذ ذلك التاريخ نزحت قبائل الغجر من ديارها متجهة نحو أفق مجهول"(حيدر،جمال:2008،ص8)،و(الهاشمي،حميد:بلا،ص36) ، وقد اشتغل كثير منهم بعد هجرتهم من الهند في مزارع الأغنياء والملوك وعلية القوم والأثرياء وبيوتهم، وكان الغجر وما زالوا يعانون التهميش والتمييز والفقر والاضطهاد والقتل أحيانًا، وظلت النظرة دونية لهم في كل مكان ذهبوا إليه (حيدر، جمال : 2008،ص9).

حافظ الغجر على تراثهم وتقاليدهم وطقوسهم الخاصة بهم على الرغم أنهم عاشوا بين شعوب تختلف عن ثقافتهم على مدى قرون، فهم في كثير من الأحيان يزدرون ثقافات غيرهم؛ لأنهم كما يعتقدون سادة الأرض، وأن غيرهم من البشر عبيد لها، فالعار عندهم مثلا أن يحمل الإنسان الغجري الفأس ليعمل بها (حيدر، جمال : 2008،ص10).

ويرى الغجر أن كل شيء في الطبيعة ملك لله وللبشر جميعًا، لهذا فهم يرون أنه لا يجوز أن يُتَهموا بالسرقة؛ لأن بعضهم يمتهنها طلبًا للرزق وتلبية لحاجاتهم، ولا يجوز في أعرافهم أن يُسرق الفقيرُ أو يَسرق غيرُ المحتاج، وعكْس ذلك يُعدُّ السارق مجرمًا يعاقِب عليه قانونُهم (حيدر، جمال : 2008،ص11).

ارتبطت حياة الغجر بالموسيقى والرقص والغناء، ومن أهم ما يظهر في معاني هذه الأغاني هو الفقر والظلم، كما عُرفوا بممارسة السحر، وإحياء الموالد، والتسول، وتجارة الحيوانات، وكانوا يقرؤون الطالع ويكتبون التعاويذ، ظنًّا منهم أنهم يحمون أنفسهم من العين الشريرة (حيدر، جمال : 2008،ص11).

لقد اختلفت تسميات الغجر من مكان إلى آخر، ففي العراق يطلق عليهم لقب "كاولي"، وهي مفردة حُرّفت عن كلمة "كابلي" نسبة إلى عاصمة أفغانستان كابل، ويبدو أنها من الأماكن التي مرَّ عليها الغجر خلال رحلاتهم. ويُطلق عليهم "القرج"، وهي كلمة مشتقة من التركية "قره" بمعنى أسوَد، وهذه الجماعة من النَّوَر توجد في أطراف الموصل، وبعض أنحاء بغداد، وتتميز بالجشع والطمع والسرقة، وتدَّعي الانتساب للقريشيين، والأرجح أن تكون من مدينة "كرج" الواقعة بين همدان وأصفهان (حيدر، جمال : 2008،ص24) ، ويقال للغجر في العراق وبعض المناطق المجاورة "الزُّطّ "، أما في بلاد الشام فيطلق عليهم لقب "نَوَري"، وهي تسمية لأهم قبيلة في الغجر، وفي مصر يطلق عليهم "الحَلَب" و"الغَجَر" و"النَّوَر" التي تعني اللص المُحتال (حيدر، جمال : 2008،ص22)،و(الهاشمي:حميد ، بلا،ص17) .

أما في إسبانيا فيطلق عليهم اسم "خيتانو"، وفي ألمانيا "التاتران" أو "التتر" بالنرويجية، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم كانوا جواسيسًا للتتار، وفي المجر "تشيكانوا" أو" فروا" أي الفراعنة، وعند اليونان "غفنتوس". ويطلق عليهم الروس "جت"، وفي هولندة "جيبتورس" وفي فرنسة "بوهيميون"، ويطلق على غجر تركية "الجنكنة" أو" تشيكاني"، وتعني الخفيف الطروب، وأصلها آلة موسيقية تدعى "الجنك" (حيدر، جمال : 2008،ص21)،و(الهاشمي:حميد ، بلا،ص 17و24-34).

لقد كتب غير واحد من الغربيين أعمالًا إبداعية حول الغجر وحياتهم، فمجَّدهم الإسباني ميغيل سرفنتيس في روايته " دون كيخوته "، وعرض لحياتهم جورج دي بيزيه في أوبرا "كارمن"، وفيكتور هيغو في روايته "أحدب نوتردام"، وكتب بوشكين ملحمة معروفة اسمها "الغجر"، وكتب مكسيم غوركي رواية عنهم سماها "الغجر يصعدون إلى السماء"، كما كتب الشاعر الإسباني لوركا مجموعة شعرية خاصة سماها "أغاني الغجر" (حيدر، جمال : 2008،ص22)،و(الهاشمي:حميد، بلا،ص 10).

لقد انتشر الغجر قادمين من الهند في كل أصقاع الأرض حاملين معهم ثقافتهم، لا يرتبطون بمكان، ولا يشدهم تعلق بشيء، فهم أعداء المكان لكنهم ليسوا أعداء الزمان، لأنهم يعتزون بثقافتهم .

المبحث الثاني: مرجعيات الهوية في رواية "الغجرية":

"الغجرية" رواية ناضجة، تقرأ فيها فكر روائية مطلعة واعية، قرأت الواقع البشري، وصورت قضاياه بعمق وبطريقة فنية عالية المستوى، واستطاعت المَدَدِي بلغتها الإبداعية أن تظهر صورة الفوضى التي تكتنف العالم في علاقاته الصعبة، ونجحت في إبراز الأنا الإنسان والآخر الإنسان وهم يتعاملون مع بني جنسهم، فالرواية تتناول الصراعات الحضارية والثقافية في العصر الحديث ، وتحاول أن تكشف عن حال العربي المسلم في فكر الغربيين ومواقفهم منه ، فالمسلم متهم بالإرهاب والعنف وحب القتل ، وهذا كله جعل بعض الغربيين يتجهون نحو محاربة الإسلام والمسلمين في كل شيء، في عاداتهم وتقاليدهم ودينهم ولغتهم(لكتاوي،ماجدة أيت :30/ 2015/4)، تقول الروائية : "أرى أنَّ على الأدب أن يعبّر عن هموم الإنسانية والعذابات التي تتخبَّط فيها، فالأدب رسالة إنسانية نبيلة قبل أن يكون شكلًا إبداعيًّا أو زخرفًا فنيًّا، إنّ من واجبات الأدب في نظري ترتيب الفوضى الداخلية والخارجيّة أيضًا التي باتت تعتري إنسان العصر، وأنْ يفكّ بأنامل الإبداع ألغام الأسئلة الوجودية المغلقة، لهذا اتخذتُ الكتابة سلاحًا أُواجِهُ به فوضَى العالم، فالكاتب حين يُبدع إنَّما هو يقاوِم جذْب القيَم وجفافَ الغايات الإنسانية النبيلة"(لكتاوي،ماجدة أيت :30/ 4/2015.

يظهر لقارئ رواية "الغجريَّة" أن الكاتبة قد ركزت على الهوية وما يكتنفها من أزمات، تدلُّ على عمق الاختلافات، وفوضى العلاقات في القضايا الساخنة على الساحة الدولية الحاضرة، وهي علاقات مشوَّهة ممتدة أبدية، يحاول فيها الأقوياء وأصحاب المصالح إلغاء الآخر بالقوة حينًا، وبالفكر أحيانًا أخرى، فرواية المددي "تصدت لأشد القضايا إثارة وحساسية ، وجعُ الهوية ومرجعياتها وانتماءاتها ، كما نجحت في نسج وإعادة تكييف الأحداث الواقعية والمتخيلة ، وتوزيعها بشكل ساحر في السرد ، وهو ما يؤكد كون الرواية عمل يأبى التصنيف والتنميط "،قطاف، سارة : 2018/3/15، ص118)، كما تحدثت عن" الهوية المتعلقة باللغة أو الجغرافية أو العرق أو الولادة أو التبني، لأنها إشكالية يعاني منها الكثيرون من أبناء هذا الجيل والأجيال التي سبقته"(عباس ، رحمن خضير:30 /5/ 2016،)، و(الحسن ، فيصل:2018/1/2).

ويمكن أن نقف عند كثير من القضايا أو المرجعيات التي تناولتها الرواية، منها:

أولاً: الجغرافية (المكان) والتاريخ :

المكان هو البيئة التي يعيش فيها الإنسان، وفيه تتشكّل هويته الثقافية وحالته النفسية من فرح وإخفاق وتعلّق(حاجي قاسمي، فرزانة ، وصاعدي، أحمد:2016،ص173)، وفي الرّواية تعددت الأمكنة التي كانت مسرحًا للأحداث، فمن المغرب إلى العراق، ومنها إلى إسبانيا وفرنسا.

وفي مراكش كانت البداية وكانت النهاية؛ إذْ تتحدث الرواية عن (بدر/ غريب)، الذي ترك بلده متوجهًا إلى العراق ؛إلى مدينة الكوت في محافظة واسط تحديدًا والتحق بعمله في زراعة الأرض، طلبًا للقمة العيش ضمن بروتوكول بين الدولتين المغربية والعراقية، إذ كانت المنطقة فيها تغلي بالأحداث السياسية والعسكرية، طالت شظاياها بدرًا وغير بدر، فمدينة الكوت قبل عاصفة الصحراء (العفنان، سعد بن خلف:1991،ص91)، "كان الازدحام يصبغ الأشخاص والهائم والأشياء بنكهة الدم والعَرَق والمواقف، يحشرها في مواكب بئيسة، تشرئبُّ نحو غدٍ مجهول، كانت هذه السوق تضمّ في أحشائها عينات مختلفة من العرقيات والجنسيات التي قذف بها مصائرها إلى هذه البقعة من الأرض... هناك عراقيون، شاميُّون، خليجيُّون، إيرانيُّون، مغاربة، وهناك أيضًا الأمريكيون والبريطانيون والإسبان، كانت حفلة بشرية مفتوحة الدعوة" (المددي ، وئام :2017،ص26)، وهذه الحال التي وصل إليها الإنسان في العراق، إنّما هي بسبب الحرب النفسية القاسية المدروسة التي مورست في تلك الفترة وفي ذلك المكان، من وسائل الإعلام التي قادت حربًا شرسة ضد الآخر الضعيف.

وتتحدث الكاتبة في الرواية عن الظروف العسكرية التي ألمّت بالمنطقة، ففي عاصفة الصحراء كانت "تهاطل القنابل إلى أن تشتعل المدينة بالأنين، وتنهمر الدموع إلى أن تتشح المدينة بالنحيب"، فتنقلب حياة سكان المنطقة إلى جحيم، وتزداد الأمور صعوبة وخوفًا وضياعًا، فتصبح الكوت كما يقول غريب: "بضآلة عصفور مهيض الجناح"، "تتقن الأوجاع وتمتهن الألم"، "صعقتها لعنة الذبول الأبدي"، "هي حزينة وجهها خريف، فيها أسوار عتيدة، وقلاع حصينة، فيها رائحة البارود" (المددي ، وئام : 2017، ص8)، "وحانات تضجّ بالمتسكعين والحمقى والقراصنة وقطاع الطرق"(المددي ، وئام : 2017 ،ص18)، "تصادفك نماذج بشرية بأنصاف سيقان أو ذوات وجوه منصهرة، اختلطت فيها الملامح" (المددي ، وئام : 2017، ص8)، و"كانت المدينة تضيق بصنوف شتى من منكوبي الحرب، ممن يتكوَّمون زمرًا وجماعات في هذا الركن أو ذاك، كأنهم دمامل متعفنة تتفتَّق عنها جلود الأزقة والشوارع، كان غريب يمرُّ وسَط ذلك الحطام البشري المتقيّح ملطّخًا قدميه بالمهَج والحشاشات، متعثّرًا بذراع مبتورة، تاهت عن جسدها أو بجمجمة قد تهشم عنادها... ونساء ثكالى يكتحلن بنثار النجيع والرماد، يحرقْنَ تراب المدينة المالح بجمرات دموعهن، ويسأل عن عزيز رحل كي لا يعود أو عن قطعة برعمية منهن، اختطفتها المنون في غفلة من الحياة " (المددي ، وئام : 2017،ص12)، أما بيت بدر فقد "أضحى قلعة للذكريات المحنَّطة، رواق موت يتسكَّع في

الحنين متكئًا على منسأة الشجن، إذ قرر بدر إغلاقَ العلويّ بعد أن حشَد في غُرف المتوفيات تفاصيلهن وأشياءهن الصغيرة، ليتركها مأدبة للعثّة والعناكب والغبار"(المددي ، وئام : 2017،ص47).

في الكوت -وفي عاصفة الصحراء تحديدًا- قُتلت والدة بدر وأخواته، فكانوا "من القرابين الباكرة التي قدمتها المدينة إلى الموت، حين اختطف القصف أرواحهن، وهن في السوق يقتنينَ لوازم عقيقة (قَمَر)" "(المددي ، وئام : 2017،ص47).

لقد كانت عاصفة الصحراء تمثل مرحلة تاريخية صعبة، صنعها الإنسان، وعاش فيها العالم -وبخاصة العربي- حالة من الخوف والاغتراب عن هويته.

إن الاستبداد والشعور بالظلم والفقر والبطالة ومصادرة الرأي وعدم الإحساس بالأمان، دفعت كثيرًا من المشارقة إلى أن يعيشوا بأزمة هوية، حاول فيها كثيرون أن يهاجروا إلى بلاد الغرب طلبًا للرزق أو العمل أو الحرية كما يرون، فصارت الهوية مرتبطة بالمستوى الثقافي والاقتصادي والسياسي، ولهذا تشتت شمل أسرة غريب، فغادرت زوجته إلى إسبانيا برفقة ابنتها قمر، وبعدها إلى فرنسا، وسبب ذلك أن بدرًا ترك زوجته وأمه وأختيه وتوجه للاشتراك في قتال المارينز، متمسكًا بهويته التي يعتز بها، فهو يرفض هوية الآخر التي كانت تسعى لإذابة الهوية العربية الإسلامية في العراق، وكان ينظر إلى هذه الحرب على أنها حالة صراع حضاري، ويتجلى رفضه لهوية الآخر في ضربه لزوجته (مهتاب) التي ذهبت لترقص أمام جنود المارينز، وكانت شدة الضربة وأداتها تعبران عن مدى الرفض الذي عاش فيه ضد القاتل الجديد الذي قتل أمه وأختيه، إنها "مُحاولةٌ يائسةٌ منه إطفاء نيران أخرى تستعر في قلبه المطعون"(المددي ، وئام : 2017،ص47).

هذا الرفض الذي عبَّر عنه غريب هو رفض للآخر المتسلط الغازي، فالجرح العميق الذي تعرضت له (مهتاب) هو الجرح العميق الذي عاشه ويعيشه زوجها غريب، بسبب ما حدث للعراق وما حدث له هو نفسه، إذ قتلت والدته وأخواته، واضطرت زوجه (مهتاب) أن تتركه إلى عالم جديد، وأصبح "انتهاك قدسية الجسد يمارس تحت ضغوط سياسية اجتماعية ثقافية"(النعيمي، فيصل غازي:2007،ص298) ، وهذا ما حدث مع غريب، فلقد رفض أن تعرض (مهتاب) الغجرية جسدها راقصة أو مغنية قبل زواجه منها وبعد الزواج، لأنه كان يرى أن جسدها مقدس، فثار بوجهها وضربها هذه الضربة الساحقة، بمقص شق فيه وجهها، ليس رغبة في امتلاك الجسد، وإنما حبّا، وتعلقا، وهي بالتالي زوجة له معشوقة.

ولم تنس الروائية أن تنبش في الماضي، لتذكِّر القارئ بصراع جديد من صراع الهويات التي اختلف حولها السياسيون والباحثون حسب أهوائهم وميولهم وطوائفهم، فهي لم تنس أن تذكر ما حدث في مدينة "حلبجة" العراقية، التي تركت صديقتها الكردية مقعدة لا تقوى على شيء، وهي في الوقت نفسه مهجرة إلى بلاد الغرب، حيث المياه الدافئة كما يرى المهاجرون إليها، تقول الروائية: "وتعرفتْ (لونا) في سكنها الداخلي على عراقية من أصول كردية، من حلبجة التي لم تضرب بالكيماوي بل بصواريخ التحالف الدولي، فبترت رجلها اليسرى""(المددي،وئام: 2017،ص157).

لقد كانت رحلة الإنسان الغربي إلى الشرق رحلة حروب وقتل وتدمير وبحث عن المصالح، أما رحلة الشرقي إلى الغرب فهي رحلة هروب إلى المياه الدافئة، فقد تكون رحلة زواج أو رحلة بحث عن الرزق، يقبله الآخر حينًا ويعطف عليه، ويرفضه آخرون جملة وتفصيلا.

أما في القسم الثاني من الرواية، فقد عاد "غريغوريو" الجندي الإسباني إلى مهْده بعد أن شارك بمغامرة جديدة من مغامرات الغرب في الشرق، صراع لا تدري مداه ولا حدوده ولا غاياته غير مصلحة شعوبهم ولو كانت على أجساد الآخرين، وهذا ما ذكرته الروائية في وصفها لمدينة الكوت العراقية.

كان غريغوريو في الشرق وبالعراق بالذات ضمن حملة عاصفة الصحراء، عاد إلى مهده القشتالي الإسباني، قالت له آن: "أجئت ربما لتلبي نداء مهدك القشتالي، وترتمي في أحضان أمّك إسبانيا كطفل هدّه اللعب في أروقة الغروب، يا سيد"(المددي ، وئام : 2017،ص95).

، وتعترف (آن) أن زوجها وأمثاله هم "لعبة تقذف بها الأرمادا (القوات البحرية الملكية الإسبانية) قربانًا إلى سعير الحروب كيفما اتفق لها الأوجه" (المددي ، وئام : 2017،ص95). وشبَّهت آن زوجها "غريغويو" بـ"عوليس" يمسح رقعة العالم بآثار قدميه، إلا أن "عوليس" انطلق من كهفه الأثيني الجميل الذي تحرسه الحوريات ليسلم ساقيه للرياح بجهاتها الأربع، ثم عاد منتصرًا إلى أثينا بعد أن اقتحم عقبات أسطوريّة محملا بالكنوز والهدايا الخرافية، أنت أيضًا يا سيِّد ميندوثا انطلقتَ من مهدكَ الريفيّ الوديع سان بارتولومي دي بيناريس لتجعل وجهك صفحة تستقبل صفعات الأقدار، ثم عدت إلى إسبانيا، لكنْ هل عدتَ منتصرًا أم منكسرًا؟ الأكيد أنك أنت أيضًا عدت محمَّلاً... محملا بجراحات الجسد والفؤاد، وبغلطة عمرك"(المددي ، وئام : 2017،ص96).

ولم يكن غريغوريو مستقرًّا، فهو في الجيش الملكي الإسباني، ينتقل من مكان إلى آخر "فمرة في صحراء العراق، يلبي نداء عاصفة الصحراء، ومرة على ضفاف بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، يحرسه من الموروس (مشرف، عبد اللطيف:بلا)، ومرة يحوم حول

جزر الخالدات... إنها قوانين لعبة الشطرنج، يُرمى البيدق على أي مربع من الرقعة يشاؤه اللاعب، ذلك أن جميع البيادق في هذه اللعبة أكباش فداء للملك" (المددي ، وئام : 2017،ص99).

وتقول آن: "لا تنس أن هناك كاتبًا آخر أكبر منك اسمُه القَدَر، قد يقتنصكَ وأنتَ في أبْهى دَرَجَات تَحْفزك، وقد يتسلَّل خلف غفلتك وأنت تلهو بقنبلتك، تراقبها وترقب انفجارها، وترتقب سماع دويها ذي النغمة المشرقية، لتكتشف في النهاية أنك أنت من انفجر... ندمًا أو ربما سأمًا" (المددي ، وئام : 2017،ص103).

ويبدو أن زوجته ترفض هذه العراكات المستمرة على مسرح العالم، فمرة في إسبانيا ومرة في المغرب وأخرى في العراق، وتنبهه إلى أن هناك قدَرًا قد يُودِي بِه في لحظة ما وهو ينفذ ما يخطط له قادته خارج بلده إسبانيا.

ثانيًا: العرق والجنس:

قامت الروائية بإطلاق اسم "الغجرية" على الرواية، وكأنها تريد أن تتحدث عن هوية الغجر المهمشة، لكنها اتسعت حتى تحدثت عن مرجعيات متعد،دة، منها هوية بدر؛ الذي قدم إلى مدينة الكوت في محافظة واسط في العراق سنة 1981 -بموجب بروتوكول بين الدولتين المغربية والعراقية، يسهم في التنمية الاقتصادية- ومنحت الدولة العراقية بدرًا أرضًا يستثمرها (المددي ، وئام : 2017،ص35)، ترافقه أسرة تتألف من (أم وثلاث أخوات)، فقد أصبح فلاحًا مرغمًا بسبب فقره (المددي ، وئام : 2017،ص43)، لكنه كان مثقفًا، فبدر كما ظهر في الرواية كان يقرأ للشاعر العراقي بدر شاكر السيّاب رائد الشعر الحديث، وللشاعر الفلسطيني محمود درويش مثلما يقرأ للشاعر الإنجليزي النشأة الأمريكي المولد ت. س. إليوت، وغيرهم .

ومن صفات غريب النفسية والسلوكية، أنَّ فيه "صمت القساوسة، وشرود الفلاسفة، وهدوء الحكماء"، وهو بعد الفَقْد المؤلم والمتعدد صار يتلفع بسواد معطف أغبر، كأنه غراب هرِم جارَ عليه الزمن، ذهنه متعب من ذكريات الماضي، يهرب من شبحٍ يطارده، يتذكر سنوات عشرين بعد الحرب، أنهكه البحث في الماضي، كان في سباق محموم مع ماضيه (المددي ، وئام : 2017،ص22).

وركزت الروائية على هوية الغجر وعلى كثير من طبائعهم وعاداتهم، رافضة أن تربط الهوية بالعرق والسلالة، فالذكور عندهم "تميمة نحس، تعلق على جبين العشيرة الغجرية، يمتهن الخمول إلى أن يحال إلى الموت(المددي ، وئام : 2017،ص44)، وهم أعداء الكتابة (المددي ، وئام : 2017،ص35)، "وأبناء اللازمان واللامكان، أبناء وطن يمتد كبقعة زيت إلى أن تشمل البسيطة كلها"(المددي ، وئام : 2017،ص31).

أما الغجريات، فلهن فنون في تحصيل المال، بالسرقة حينًا؛ فقد "يتسربلن بفنون الاختلاس، يلجن المحلات التجارية والدكاكين والأسواق، يقودهن سبق الإصرار والترصد ليمارسن هوايتهن في الانتشال " (المددي ، وئام : 2017،ص44).

وقد يقمن بسرقة مهذبة، فيحصلن على المال عن طريق احتراف الرقص والغناء، لكنهن متمنعات (المددي ، وئام : 2017،ص44)، وهناك غجريات رخَّالات، "يمتطين أحصنة التشرد ويمتهن قراءة خرائط الكف" (المددي ، وئام : 2017،ص44)، ومنهنَّ "من احترف مهنة الثَّكل، وهو بكاء على قوافل الرائحين الذين تنكرت لهم جدران الوطن، فلا يسعهن أمام رعب تفاصيل لعبة الموت، سوى التخشع في خيامهن المتناثرة هناك في السهول الخجلى التي تحتضنها جبال الجنوب الشرقي الحزين" (المددي ، وئام : 2017،ص45)، وتلخص الكاتبة رأيها بالغجر فتقول: "الغجر أقراص قابلة للذوبان في أي محلول"(المددي ، وئام : 2017،ص42).

لقد كان التقاء مهتاب "مرسال" (حسنين ، عبد المنعم : 1982،ص 705) ببدر بداية انسجام بين ثقافتين، وصفتها الروائية وصفًا دقيقًا، من حيث لباسها، ومهنتها، هي ساحرة بجمالها، "تشدُّ رأسها بعصابة حمراء، محاطة بدنانير ذهبية صغيرة، شعرها شلال ليلي حريري، تزينه قطع خرز ملونة، يحيط شحمتي أذنها قرطان ذهبيان على شكل طاووسين نُحاسيين صغيرين، ترتدي قميصًا بلون البحر، أطرافه مزركشة، ينحسر عن كتفين رخاميين صقيلين بحمرة الرغيف، تَنُّورتُها بيضاء فضفاضة طويلة، تشد خصرها بمنديل أحمر، تحفه الأهداب، مطرزة باللون الأسود، كاحل القدم اليسرى ونحرها ومعصما يديها مهرجانات للقلائد، والدمالج والخلاخل الذهبية تحدث الكثير من الجلبة"(المددي ، وئام : 2017،ص28)، تترأس جوقة موسيقية، ترقص وتغني، وتدور حول نفسها على إيقاع ضربات دفها الصغير (المددي ، وئام : 2017،ص29)، ترقص في الحفلات والأعراس، كانت مهتاب: "ترقص وقلبها يرقص على مدى الألم، تغني وتصدح بصوتها في سماء باكية، بينما فؤادها ينهمر كالمطر الصامت" (المددي ، وئام : 2017،ص48)، فهي ترفض حياة الغجر، وتتمرد على الدور الذي تقوم فيه، لكنها مرغمة على ذلك.

والاختلاط بين الثقافتين نادر إلا في حفلة يحيونها أو سهرة يقضونها معًا، لكن سرعان ما تنقطع العلاقة، فلغة الغجر اللغة الدومرية التي هي خليط من الهندية القديمة والإيرانية، ولغة بدر العربية، لكنها المغربية العامية التي قد لا يفهمها أبناء جلدتهم. والأمر الآخر طبيعة تربية غريب/ بدر، فهو من مجتمع فيه عادات قبلية محافظة، يرفض طبيعة الغجر وكثيرًا من عاداتهم التي تقوم على الرقص والاستعراض وغزل الزبائن، فهي تزوجت وهربت، وألبست الجلباب المغربي لتراثها الكاولي الغجري، تدربت على الوصفات المغربية (الكسكس والطاجين، والبسطيلة، وكعب الغزال والشباكية والبقلاوة) (المددي ، وئام : 2017،ص42)، كان زواجهما عرسًا مزيجًا هجينًا

لتقاليد الأعراس المغربية والعراقية الغجرية الكاولية، فكان احتفالا بزواج ثقافات قبل أن يكون احتفالا بزواج حبيبين (المددي ، وئام : 2017،ص45)، ومراسم العرس كانت مزيجًا من ثقافة الغجر وثقافة أهل المغرب، فمهتاب في زواجها تناولت كسرة رغيف ورشَّتْها بقليل من الملح ثم خدشت معصمها ومعصم بدر بشفرة حادة، بعدها سقت كسرة الرغيف تلك بقطرات دمائهما ثم التهم كل واحد منهما كسرة من رغيف، أما اللمسة العراقية التي يمارسها أهالي بغداد قبل أن تتسرب إلى الكوت وهي كل واحد منهما يطأ رجل الآخر، والذي يفوز يكون قائد الأسرة (المددي ، وئام : 2017،ص46).

لقد تبرأت مهتاب من هويتها، ورفضت كثيرًا من عادات الغجر وتقاليدهم (المددي ، وئام : 2017،ص44)، وأمام هذا الرفض كانت مهتاب تتعرض للاختطاف لتعود إلى مخيم الغجر، فـ " كانت بقبضة رجل ضخم الجثة، كان يجرها إلى أن وصلت إلى ساحة واسعة، فيها عربات مزخرفة، رسمت عليها خيول بديعة، يحيط بالعربات عدد من الرجال يظهر من أزيائهم أنهم غجر، قال لازم الأحمر: "أخيرًا وُجدت مهتاب الخائنة، من غادرتنا ذات جنون فأحرقت معها كل بنود الغجر" (المددي ، وئام : 2017،ص56)، لكنها استطاعت أن تفك قيدها من سجن أهلها وتهرب من لازم الأحمر وغيره (المددي ، وئام : 2017،ص69)، وعندما سافرت مع زوجها الجديد إلى الغرب، والتحقت بفرقة الرقص الجديدة هناك، وجدت أن طباع الغجر وعاداتهم في الشرق والغرب واحدة، وقد حضرت لونا مع مهتاب أمها العرابة "رقْص الغجر وعزفهم على الطبول، وآلات القرب والدف والقيثارة " (المددي ، وئام : 2017،ص128)، وكان أول تغيير في الهوية في الزواج المرفوض من مجتمع الكاوليّة، لكنها انسلخت عن هويتها بحثًا عن هوية أفضل، ثم كان التغيير في الأسماء، فتحولت قمر إلى لونا وتحولت مهتاب إلى مدرينا التي تعني الأم الروحية أو العرَّابة.

ثالثا: قضية التبنّي:

يقصد بالتبني: اتّخاذ الشخص ولَدَ غيرِهِ وَلدًا له، وجعْله مثل ولده الحقيقي المولود من صلبه، وكان التبني متفشيا في الجاهلية وصدر الإسلام ، ويعني: أن يضم الرجل لنفسه طفلا ويعلم أنه ابن غيره ، ويعامله معاملة أبنائه (القاضي،عبد الفتاح: 10(28)،ص175).

يظهر في الرواية أن ظاهرة التبني من الظواهر اللافتة في المجتمع الغربي، فلقد تبنّى "غريغوريو" "لونا"، وتبنَّت أسرة إتيان الفرنسية كريم المغربي (المددي ، وئام : 2017،ص158)، ولم يظهر في الرّواية في جزئها الأوّل التي كان مسرحها المغرب والعراق أي حديث عن التبنّي، أو أن أية شخصيّة من شخصيات الرواية قد قامت بفعل التبني، لأن طبيعة المجتمع المسلم يرفض مثل هذه الظاهرة لأسباب كثيرة، منها: الخوف من اختلاط الأنساب وضياعها، والحقد والضغينة، وقطيعة الأرحام، بسبب الإرث، والخوف من نسب الطفل والخوف من تجريده منه، ، ولهذا أسقط الإسلام التبني ، ورفض أن يرث ، وحصر الإرث بالبنوة الحقيقية والأبوة والأمومة والأخوة الحقيقية (القاضي،عبد الفتاح:10(28)ص175) ، قال تعالى ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الأحزاب:5

عندما تغيَّر مسرح الأحداث في الجزء الثاني من الرواية، وأصبح في إسبانية وفرنسة، أشارت إلى حالات التبني في مجتمعاتهم، فتبنى "غرويغوريو" قمر ابنة مهتاب الغجرية العراقية؛ لأنه كان عقيمًا، وقام بتغيير اسمها، وحاول أن يغيّر دينها، أما بيير وأوسيان حين قررا احتضان الطفل المغربي كريم، لم يغيّرا اسمه، ولم يأبه بتوجيهه دينيًا، فقد كان "بيير" يؤمن بالانفتاح والتعدد الثقافي، ويؤمن بضرورة محاربة اليمينيين المتعصبين للعرق الفرنسي أو المسيحية الكاثوليكية (المددي ، وئام : 2017،ص153)، يقول: "إنَّني أتعصّب للعِرق الإنسانيّ، وأعتنق دين العقل، يردّد بيير أكثر من مرة مفاخرًا (المددي ، وئام : 2017،ص153)، ولم يتخلَّ الناس هناك عمّن تبنوهم، فلقد كانوا يشاركونهم بأعيادهم، ويقدمون لهم الهدايا، ف."لونا" "غدًا ستسافر بمعية خايمي إلى بامبلونا، لقد أمضت المساء في سين سان دوني، حيث أقام العم بيير والخالة أوسيان وكريم عيد ميلاد بهيج، كما قدَّم لها زملاؤها هدايا لعلمهم بسفرها يوم غدٍ،كي تزور أباها المريض بعد أن منحت له المدرسة رخصة للتغيب بتدخل الأستاذ خايمي"، أستاذ اللغة الإسبانية وعازف قيثارة"(المددي ، وئام : 2017،ص182).

لقد كانت شخصية غريغوريو منفتحة جريئة، فقدم من العراق بالطفلة "آن" وأمّها "مادرينا" الغجريّة العراقيّة، لِتكونَ مربيّة لها، وأخذَ أمّها زوجة سرًّا خوفًا من زوجته المتمردة "آن" التي من أهم صفاتها أنها خاملة ومتقاعسة (المددي ، وئام : 2017،ص99)، فكانت عنصرية، تمقت كل ما هو شرقي، لعنجهيتها وفوقيتها، وعاملت "آن" "مادرينا" معاملة سيئة، لأن غريغوريو كان يهتم بها كثيرًا، وشعرت أنه يحبها، مع أنها لم تكن تعرف أنه تزوجها سرًّا (المددي ، وئام : 2017،ص97)، فلم تعجبها تصرفاته ولا مكان سكنه الريفي الجميل، وكانت تدرك أن "مادرينا" لا تضمر مشاعر إعجاب لـ"غريغويو" لكنّها كانت متأكدة من أن زوجها يكاد يتفحم عشقًا، لقد شخصت حالته العاطفية مع "مادرينا"، وضبطته متلبّسًا بتهمة حبّها غيرَ مرّة، سمعته مرارًا يردد اسمها وهو يغط في النوم" (المددي ، وئام : 2017،ص118)، وكانت "آن" حادة المزاج، متقلبة الطباع وبخاصة في تعاملها مع الطفلة قمر، ومربيتها "مهتاب"/ "مادرينا" العرّابة، كانت تنهرهما باستمرار، ترفض طلباتهما، "كانت آن مشتعلة الأعصاب على الدوام، إذ كيف لخادمة مشرقية متشردة أن تهزم الروح الباريسية الأنيقة التي تسكنها ؟" (المددي ، وئام : 2017،ص118)، لقد كانت شخصية آن متسلطة وبخاصة أنها فرنسية تعيش في إسبانيا، فهي

تنتقم من الفلاحين الذين نظّفوا إسبانيا من الغطرسة الفرنسية البونابرتية، فلقبها بعضهم نابليون الأنثى، أما "آن" "فقد صارت تراقب تحركاتها (مادرينا)، وحجزت أحلامها، ووضعتها تحت الإقامة الجبرية، هناك في كوخ خشبي مهترئ، يبعد عن البيت بضع خطوات، جعلته مطبخًا" (المددي ، وئام : 2017،ص104)، "وكثيرًا ما كانت تشعر بالبرد في ذلك الكوخ المدعو مطبخًا" (المددي ، وئام : 2017،ص118).

بدأت طقوس الحياة تسير بشكل طبيعي في إسبانيا، وارتحلت الأسرة إلى مدينة مصارعة الثيران/ ملعب الكوريدا، التي وصفتها الكاتبة وصفًا دقيقًا، و"كانت آن لا تود ِ حضور مصارعة الثيران التي ستقام بعد الزوال في الحلبة، لكن غريوغوريو أصرّ على ضرورة حضورها حتى ترى ملمحًا من الملامح التاريخية العريقة لإسبانيا" (المددي ، وئام : 2017،ص110)، وكان يرى أن هذه المصارعة تعني بالنسبة للإسبان القوة والسيطرة، يقول:" كي تصيري مصارعة ثيران يا عزيزتي عليك أن تجيدي استعراض قدراتك على السيطرة والسيادة، وتُري للجماهير كيف تنتصر الإرادة على الغريزة " (المددي ، وئام : 2017،ص112)، أما "مادرينا" فقد لفها الصمت في هذا المشهد، "كانت تحسّ أنها ذاك الثور الجريح، هي أيضًا كانت تتلقى الطعنات من عدو لم تكتشف هويته بعد، من عدو مجهول، عدو كهذه الطورّيرو، يناورها، يراوغها، يجاذبها يمينًا وشمالًا، أو بالتلويح بأحلامها النازفة غبنًا، إلى أن تتلقى بين ذعر وآخر طعنة في قلب الأمل، الناس في وطنها كانوا ثيرانًا آدمية مرهونة للشقاء والألم في حلبة مصارعة ممتدة، اسمها المشرق"(المددي ، وئام : 2017،ص113)، "لقد أدركت مادرينا أن الأعراق والديانات بريئة من تهمة الشر" (المددي ، وئام : 2017،ص113)، ولهذا طرحت في نفسها السؤال الكبير، "لماذا يتهمون المسلمين بالبربرية والدموية كل عيد أضحى، بينما هم يتفننون بين نزوة وأخرى في تعذيب الثيران وتعذيب البشر أيضا؟" (المددي ، وئام : 2017،ص113).

وتظهر العنصرية والفوقية ورفض الآخر واضحة في غير موقف في الأمكنة الجديدة، فقد كانوا ينعتون المغاربة بـ "الموروس" الملاعين "(المددي ، وئام : 2017،ص115) ، وفي موقف آخر، عندما وبّخت الكردية العراقية إيلانة لونا، وعابت عليها عربدتها وانحرافها، وسهرها ليلة مع خايمي، وشربها الخمر، وعادت ثملة إلى غرفتها بالإقامة، وبّختها إيلانة، إلا أن لونا ردت عليها بجواب جارح، وقالت لها: "اصمتي أيتها الكسيحة... من مثلك ليس جديرا بتقديم النصائح، أنت كسيحة كبلدك وكالعالم الذي تنتمين إليه، بلدان مقعدة، بلدان غارقة في مستنقع الجهل، آكلو لحوم البشر، تشربون الدماء، وتسفّون التراب، أشك أنك تخفين قنابل نووية تحت سريرك، يا لَحَظِّي العاثر! لم أجد سوى كردية عراقية كي أقاسمها الغرفة، تريدين أنت ومشرقك تدميرنا؟ أبدًا نحن الأقوى، الغرب هو الأقوى، أنا أقوى منك يا إيلانة، هل تعرفين لماذا؟ لأنّ نصْفي قشتالي ونصفي الآخر باريسي، عروقي تجري فيهما دماء حضارتين عظيمتين، أما أنت فمجرد كردية تنتمي إلى مشرقِ الموت والدمار، ذلك الفتى المَغْربي المَدعو ياسين أراد أيضًا أن يدمّرني إنه يحسدني لأني أفضل منه، وأقوى منه، لكن هيهات خايمي يحبّني، خايمي ينتمي إلى العالم الأمريكولاتيني العظيم، لن تنالوا منا أيّها المرتزِقة، صِرتُ أدركُ الآن لمَ كان أبي يُنادي المغاربة الموروس الملاعين" (المددي ، وئام : 2017،ص177).

ومن المواقف اللافتة قصة اختفاء مادرينا، واحتراق كوخها وتفحمها فيه، كما ظهر للحاضرين وللمفتشين، قال الحاضرون لغريغويو: "لا تضحي بحياتك في سبيل امرأة كتلك" (المددي ، وئام : 2017،ص137)، في الوقت نفسه كانت زوجة السينيور ميغيل طورّيس مارتنيث أحد أثرياء البلدة وأحد أعضاء البرلمان الإسباني قد اختفت، وجاء أمر للمفتش من رئيس القسم بإغلاق الملف بحجة عدم إضاعة الوقت، وإخفاء تفاصيل الموقع والحريق، دفنت العرابة مادرينا في مقبرة خاصة بعيدًا عن القرية، ولم تدفن في الباحة الخلفية للكنيسة كما لم تكن هناك طقوس مسيحية لأنها مسلمة (المددي ، وئام : 2017،ص138).

وبعد أن شعرت آن أن زوجها قد أصابه حزن شديد على مادرينا قررت أن تطلب الطلاق، فهي فرنسية وهو إسباني، وقد حسمت أمرها في ذلك؛ "لقد كنت أفكِّر في موضوع الطلاق هذا منذ مدة... استعدّ لفراق صغيرتك لولو، ولتتعفن ببطء هنا إلى أن توافيك (تقصد زوجها) المنية" (المددي ، وئام : 2017،ص140)، ولقد عادت آن إلى حبيبها القديم التي كانت تدرس معه في الجامعة، وكانت تجمع بينهما قصة حب كبيرة، "طالما حلمت آن أن تتزوج برجل أشقر مثلها بعينين زرقاوين" (المددي ، وئام : 2017،ص141)، وكان غريغوريو زوجها القديم ذا شعر إسباني أسود لمّاع "(المددي ، وئام : 2017،ص 142).

لقد رحلت آن إلى بيت الزوج الجديد، وأخذت معها لونا، لكن لونا لم تشعر بالأمان والحنان والعاطفة والمعاملة الإنسانية المحترمة، فقررت أن تخرج من البيت بطريقة أو بأخرى، ووصلت إلى مركز للعناية الاجتماعية عن طريق صاحبة محل للحلويات اسمها أوسيان وزوجها بيير، وحاولت آن أن تعيد لونا إلى حضانتها، لكن مدير المركز رفض رفضًا قاطعًا، واختارت البقاء مع بيير ومدام أوسيان؛ لأن الطفل في أوروبا ملك للدولة لا للوالدين فقط (المددي ، وئام : 2017،ص150).

لقد كانت آن من أنصار الحزب الديمقراطي المسيحي، الذي له موقف عنصري من المشارقة، وتظهرُ عنصريتها في مواقف كثيرة، منها مخاطبتها للونا عندما خرجت من البيت، وحاولت أن تعيدها إليه: "أنا أيضًا سأتخلى عنك، سأتركك مع هؤلاء الغرباء، سيكون ذلك أفضل حتى أنسى أباك الخائن غريغويو الذي فضّل عليَّ خادمة مشرقية"(المددي ، وئام : 2017،ص152) ،إنها تتلفظ بألفاظ عنصرية اعترض عليها بعض الحاضرين في المركز.

أصرت لونا أن تنادى بـ "قمر" (المددي ، وئام : 2017،ص208)، وهذا يدل على مدى تمسكها بأصولها وبخاصة بعد أن عرفت أنها عربية، فلقد تعرفت إلى امرأة باريسية غنية، نقلتها معها إلى بيتها في أرقى أحياء باريس، وبعدها صرحت لها بالحقيقة أنها أمها، وأعطتها صورة والدها الحقيقي غريب بدر العراقي، "وأما الأموال الطائلة فلأني أصبحتُ مغنية مشهورة بعد أن بذلت جهودًا كبيرة حتى ارتقيت مدارج الفن في أمريكا اللاتينية، وذلك بمساعدة رجل أعمال كبير يدعى السينيور ميغيل طورّيس مارتينيث، ذاك الذي ساعدته في التخلص من جثة زوجته، لقد منحني لقبه وأعد لي أوراقًا إدارية مزورة تشهد على أنني إسبانية تحمل اسم فيونا طوريس مارتنيث، وأجبرني على السفر إلى المكسيك لتوقيع عقد فني مجحف كي أنخرط في العمل مع فرقته الفنية "(المددي ، وئام : 2017،ص218).

هذه صورة العلاقة بين الحضارات، صراع ينفذه بعض البشر ضد بعضهم، تظهر فيه الفوقية والعنصرية ومحاولة إلغاء الآخر، يظهر ذلك على مستوى الحضارات أو على مستوى الأفراد.

رابعًا: الدين:

لا بد من القول إن الإسلام يعترف باليهودية والمسيحية كديانتين سماويتين، كما أنه لا يفرق بين الأعراق والألوان والأجناس، فلقد كانت ديار المسلمين وما زالت ملتقى للعابرين والساكنين من كل حدب وصوب، ولم يكن المُحاوِرُ من المسلمين يطعن في دين الآخر ولا في معتقده، ولا يهزأ بلونه أو في عرقه، أما الأوربيون فنظر أغلبهم نظرة دونية للإسلام والمسلمين وأهل الشرق بعامة، وخير دليل ما قرأناه في التاريخ، وما نلمسه من قتل وتدمير في الوقت الحاضر، طلبًا للثروة التي يمتلكها من لا يستحقها كما يظهر من خطاباتهم.

لم ترض الغجرية مهتاب/ مادرينا أن تغيّر ابنتُها دينَها مطلقا، لهذا كانت تراقبها بامتعاض عندما كانت آن تأخذها إلى الكنيسة، وتعلمها الديانة المسيحية، لكن مادرينا كانت تتمنى لو صحبتها إلى صلاة الجمعة في المشرق، حيث يورق الدفء في محيا الأهالي (المددي ، وئام : 2017،ص133).

لقد جعلت الروائية من زواج الغجرية المسلمة بالمسيحي غريغوريو أمرًا عاديًّا، لم تعلق عليه، علما أن الشرع الإسلامي يرفض ذلك رفضًا تامًّا مهما كانت الظروف، قال ابن حزم الظاهري: "ولا يحل لمسلمة نكاح غير المسلم أصلا" (الأندلسي، ابن حزم : 2003، 527/9)، وأجاز ابن حزم للمسلم نكاح الكتابية وهي اليهودية والنصرانية بالزواج (الأندلسي، ابن حزم : 2003، 527/9).

لقد انسلخت مهتاب عن ثقافتها الغجرية في المرة الأولى عندما تزوجها بدر مع أنهما مسلمان، وتزوجت من غريغوريو المسيحي الأرثوذكسي، وانقطعت عن زوجها بحثًا عن المال، وفرارًا من القهر والظلم الذي أصابها من بدر ثم ما أصابها من زوجة غريغوريو آن، ثم عادت فيما بعد إلى هويتها الأصلية إلى بدر، لكنها لم تعد زوجة.

وفي الرواية كره للإسلام وللعرب، ورفض لمعاني القرآن بكل اللغات، ورفض لكل الشرق، ظهر ذلك من خلال النظرة الفوقية في أقوال لونا العنصرية ضد المسلمين موجهة خطابها إلى آن ظنًّا منها أنها مسيحية من الغرب، وظهر ذلك في غير موقف ، ولا ننسى الحروب التي خاضها الغرب في الشرق العربي وغيرها .

الخاتمة:

ظهر لي في نهاية هذا البحث أن الروائية وئام المددي قد استوعبت درسها جيَّدا، فقد استطاعت بروايتها الغجرية أن ترسم صورًا كثيرة لعلاقات البشر على مستوى الأفراد أو الجماعات، فكانت في أغلبها سلبية وفي القليل منها إيجابية، لقد صورت أزمة الإنسان في الدفاع عن نفسه وكيانه وحضارته ودينه وعرقه وتاريخه، تأكيدًا لهويته التي يتعلق بها ويقتنع بأهميتها، وفي الرواية مشاهد القتل والدمار والرعب والخوف والتفرق والتشتت والطلاق والهروب ورفض الأديان في المشرق وعند الأوروبيين في آن معًا. وبعد، ولتزاحم الأحداث فإن القارئ المتمهل للرواية يلحظ أنه لم تكن فيها شخصية رئيسة، فقد لعبت قمر دورًا بارزًا في أغلب أحداثها، أما مهتاب، فقد غابت عن مسرح الأحداث كثيرًا، على الرغم أن الكاتبة وضعت اسم الغجرية عنوانًا للرواية، وتقصد زوجة بدر (مهتاب).

وفي الرواية كلام كثير أدخلته الروائية لا ضرورة له، فأعادت الكاتبة إنتاج ثقافتها بطريقة فنية جديدة، تحت ما يسمى رواية "الغجرية"، فوقفت على كثير من أحداث التاريخ والمهاجرين والأعراق، وكانت تتحدث عن الهيمنة وأبعادها وحدودها وفضاءاتها في الشرق في الصحراء اللافحة وعند الغرب حيث المياه الدافئة، فكانت رواية ثقافية أدبية، تقترب في لغتها من الشعر،ترسم لوحات فنية بكلمات تموج بالألوان.

وأرى أن الكاتبة تعتقد أن اللغة تصون الهوية وتحميها، لذلك كانت مبدعة وهي تكتب روايتها بلغة شاعرية عالية المستوى، وواضحة لا لبس فيها ولا غموض، بلغة متفردة في جمالها وفي عمقها، لغة شعرية مفهومة لكنها مجبولة بالبلاغة ودقة الربط، فاستخدمت اللغة بطريقة إبداعية، فيها ترابط وإتقان، حملت المعاني بكل ما فيها من تعقيدات وتشابكات، لقد رتبت الروائية أفكارها بلغة شعرية ذات طابع إبداعي عميق، وتجلت في ألفاظها قيم بنائية عبرت فيها عن أفكارها بلغة خلاقة فكانت رواية الغجرية.

المصادر والمراجع:

1- الأندلسي ، ابن حزم (2003) .المحلى بالآثار (كتاب النكاح).تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، ط1، بيروت ،دار الكتب العلمية.

2- بدوي ، أحمد زكي (1977).معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية،ط1، بيروت، مكتبة لبنان.

3- البوني ، عفيف (1982).وعي الهوية العربية في الفكر التونسي الحديث. باريس، منشورات العالم العربية.

4- البيطار، نديم (1982). حدود الهوية القومية، نقد عام. بيروت . دار الوحدة.

5- تيزيني ، طيب (2008).مفهوم التراث العالمي، مدخل إلى التأسيس.الكويت ، مجلة عالم الفكر، 36(4)،7-25.

6- الجابري ، محمد عابد (1993).نحن والتراث (قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي). ط6،الدار البيضاء. المركز الثقافي العربي.

7- جامعة الدول العربية (1985) .الاستراتيجية العربية للتنمية الاجتماعية الشاملة، الدراسة الأساسية، القاهرة، الإدارة العامة للشئون الاجتماعية.

8- جودمان ، آلان إتش، و مورنس ، يولاندا ، وإل جونز ، جوزيف.(2017) الأعراق البشرية، هل نحن حقًّا على هذا القدر من الاختلاف؟ ترجمة شيماء طه الريدي وهبة عبد المولى أحمد، المملكة المتحدة، يورك هاوس شييت وندرسون، مؤسسة هنداوي.

9- حاجي ،قاسمي ، فرزانة، وصاعدي ، أحمد رضا (2016). جماليات المكان في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، دراسة تحليلية. ماليزيا ، مجلة الدراسات اللغوية، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية العالمية، ، 7(1)،ص163-176.

10- الحسن ، فيصل (2018/1/2) .الغجرية.. رواية كتبت بعين سينمائية لتنقل خراب البشرية. صحيفة العرب المغربية.

11- حسنين ، عبد النعيم (1982).قاموس الفارسية ؛ قاموس فارسي عربي . ط1، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

12- حيدر ، جمال (2008).الغجر، ذاكرة الأسفار وسيرة العذاب. ط1،الدار البيضاء ، المغرب. المركز الثقافي العربي.

13- الخضر ، علي إبراهيم (2007) . إدارة الأعمال الدولية. ط1، دمشق، دار رسلان للطباعة والنشر.

14- الدوري ، عبد العزيز (2013).الهوية الثقافية والتحديات.بحث في كتاب: الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر،ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل، (68)،ص235-248.

15- زاهر ، ضياء الدين ،(2017). اللغة ومستقبل الهوية، التعليم نموذجًا. سلسلة أوراق مكتبة الإسكندرية ، ع(24).

16- عاقل ، فاخر (1985) معجم علم النفس، ط1، بيروت ، دار العلم للملايين.

17- العاني ، خليل نوري ، (2009).الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية. ط1، بغداد، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة (58).

18- عباس ،خضير عباس (30 /5 /2016).رواية الغجرية والبحث عن الهوية. البصرة،صحيفة بصراياثا، (مجلة ثقافية أدبية)، البصرة، العراق.

19- عبد الحميد ، محسن (1995). تجديد الفكر الإسلامي .المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، أمريكا.

20- العفنان ، سعد بن خلف (1991).عاصفة الصحراء ومقدماتها. ، ط1، حائل ، مكتبة النهضة الوطنية.

21- علي ، خليل الشيخ (1965).وقفة على دروب الكاولية . مقالة ، جريدة البلد البغدادية، 9 (353) .

22- القاضي ، عبد الفتاح . حكم التبني في الإسلام ، المدينة المنورة ، مجلة الجامعة الإسلامية ،10(28)،ص 173-188.

23- قطاف ، سارة .(2018/3/15).السرد في رواية الغجرية لوئام المددي العجائبية والواقعية ، مجلة تاريخ العلوم ، جامعة زيان عاشور الجلفة ، الجزائر ، م2018،ع11، ص118-135.

24- كتارا ، جائزة الرواية العربية(2020). موقع . الدوحة.

25- كربية ، كريمة محمد.(2015). اللغة والهوية. مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، 27(1)،51-74.

26- لكتاوي ، ماجدة أيت (30/4/ 2015)مقابلة مع وئام المددي،المغرب ، جريدة هبريس الإلكترونية .

27- المددي، وئام (2017). رواية "الغجرية". ط1، الدار البيضاء، المركز الثقافي للكتاب.

28- مشرف ، عبد اللطيف (بلا). هجرات الموروسكيين .القاهرة ، دار العربي للنشر.

29- النعيمي ، فيصل (2007). تسويق الجسد بين المتعة والنسق الثقافي ؛مقاربة لرواية: خطوط الطول خطوط العرض. مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، 6(1)،ص298-312.

30- الهاشمي ، حميد (بلا) . تكيف الغجر، دراسة انثروبولوجية اجتماعية لجماعات الكاوليّة في العراق. بيروت ،دار الفكر الجديد.